مجلة جامعة الملك عبدالعزيز: الآداب والعلوم الانسانية، م٣٠ع١ ص ص: ١- ٢٣ (٢٠٢٢م)
DOI:10.4197/Art.30-1.1

بنياتُ الحربِ والمجاعةِ والوباءِ
قراءةٌ في رِوَايَتَي (سفر برلك) و(قَنْص)

د. أسماء مقبل عوض الأحمدي

أستاذ الأدب المساعد

قسم الثقافة الإسلامية والمهارات اللغوية

كلية العلوم والآداب برابغ جامعة الملك عبد العزيز– المملكة العربيّة السُّعوديّة

مستخلص. يحاول هذا البحث قراءة الأبعاد الاجتماعيَّة والتَّاريخيَّة في نموذجين دالين منَ الرِّواية السُّعوديَّة، من خلال التّركيز على بنيات: الحرب، والمجاعة، والوباء؛ وهما روايتا: (سفر برلك) لمقبول العلوي، و(قنص) لعواض العصيمي، ويتوجّه الاهتمام إلى رصد الظّواهر، مبتعدًا عن المقارنة المباشرة، مع محاولة ربط المضمون بالشَّكل عبر دراسة خطاب الحكاية والرُّؤية والبعد الاجتماعي والسّياقات الحافَّة والمنتجة للخطاب، باستثمار ما يقتضيه الدّرس من مبادئ المنهج البنيويّ التَّكوينيّ.

ويتناول البحث علاقة الأدب بالحياة، وحضور الوباء والمجاعة في الأدب العربي، ثم ينتقل إلى تتبُّع المتن الحكائي للرِّوايتين، ورصد تلك التجليَّات، ودورها في تطوّر الأحداث، لينتهي إلى رصد البُعد الاجتماعي، وتحديد رؤية العالم المستفادة من الرّوايتين، دون إغفال مناقشة خطاب الحكاية من خلال الزّمان والمكان واللّغة السّرديّة؛ ليزاوج البحث بين دراسة البنية الشّكليَّة وربطها بالبعد المضموني.

وتوصّل البحثُ إلى أنَّ الخطاب الرّوائيّ يمتلك من خلال خصائصه البنيويَّة قدرةً خاصَّةً على التعبير عن الظواهر المختلفة التي تبرز على سطح المجتمع؛ فينقله إلى عالمٍ سرديّ يجمع بين لغة الواقعِ المعبر عنه ولغة التخييل؛ بوصفه عملًا إبداعيًّا قادرًا على معالجة قضايا واقعه، وتصوير ظواهره، ورصدها، والكشف عن أسبابها، ليتمَّ نقدُها من خلال وجهة النّظرِ؛ لمحاولة تغييرها أو تجاوزها، وهذا ما كشفته القراءة البنيويّة التّكوينيّة بشكلٍ أكثر وضوحًا في رواية (سفر برلك)، وفي رواية (قنص) بدرجة أقلّ وضوحًا.

الكلمات المفتاحية: بنيات، الحرب، الوباء، المجاعة، الجوع.

المقدمة

يُكوِّن الأدبُ صورًا كثيرة ومتعددة؛ كالصور الموازية أو المحاكية بتعبير أرسطو للواقع الاجتماعي، الذي أنتجه بسياقاته المادية والمعنوية والسيكولوجيّة والثّقافيّة؛ فيصير بمثابة شعاع ضوء يُسلَّط على ظاهرة معينة، يلفت نظر المجتمع لها، ويحاول فنيًّا أنْ يجد حلولًا جذريَّة لها، وهو ما يسمّى بأدب المرآة؛ لأنه يعكس ما يدور في المجتمع،

وبقدر عمقه ومصداقيّته يكون قادرًا على اقتراحِ حلول ممكنة لبعض قضايا هذا الواقع الاجتماعي المعبّر عنه، لا مجرد انعكاس لأحداثه.

وتوجدُ نصوص سرديّة لها هذا التّأثير، بما تمتلكه من قدرات – من وجهة نظر روائيّة – في تغيير بعض السّلبيّات في المجتمع، فعالجت قناعات متجذرة أحيانًا، وإنْ لم يخلُ الأدب من وجهه الآخر الأهم؛ أعني التّخييليّ.

وفي نقل قضايا الواقع المعيش عبر عوالم التخييل؛ تَمكَّن الرّوائيّ من ذلك؛ فغدا مثيرًا ومحركًا لبنيات المجتمع فكريّا وثقافيًّا واجتماعيّا، وهذا التخييل يمنحُ عالمنا الواقعيّ أبعادًا أخرى عبر آليات المزج في اللاوعي بين الصور السرديّة الخيالية والواقعيّة؛ لأنه حينئذٍ يقفُ بين واقعي الشُّعور واللا شعور؛ ولأن الشعور لا يفرّق عادةً بين الخيالي والواقعي، فإن النّصَّ يُحلّقُ بمتلقّيه عبر فضاءات بعيدة، وإن ظلّت أحداث سرده وقضاياه وأفكاره متجذرة في تربة واقعه المحيط.

وفي هذه الصور من الأدب الواقعيّ يظلُّ دورُ الخيال في القدرة على الالتفاف حول الواقع المباشر، وتسجيل نبضه المريض حين يكون واقعه مريضًا، استشعارًا من المبدع بمسؤوليته وإدراكه قيمة نصّه، ودوره وقدرته على التّأثير.

والإشكاليّة القائمة هي: ما غاية الروائي حين يختار الكتابة عن واقعه المتأزّم؟ هل غايته البحث عن الحقيقة، أم مجرد الإثارة والتثوير، أم تحقيق مآرب شخصية؛ كأنْ يكونَ الأعلى توزيعًا أو مقروئية؟

وهذه التساؤلات توضح أنَّ موهبة الروائي تتجلَّى في قدراته الفنيّة على اجتذاب المتلقين عبر آلياته السردية وبنياته التكوينيّة؛ ليحفظَ للأدب إنسانيته ورقّة ملامسته للواقع الهشّ، من غيرِ أنْ يتحول السّارد إلى مصوّر فوتوغرافي أو محرر صحفي يسجل ظواهر واقعه.

لا يكتفي النص الروائي بالرّصدِ والتّحليلِ وإظهارِ وجهة النّظر الخاصّة للقضايا، بل يمنحُ الواقع رؤًى مختلفة عبر تفاصيل الصور السّرديّة – يفوق واقع المنظور المحدود للمصور أو المحرر – بلغته الخاصة، واختياراته الفنيّة لعناصر السّرد، وكيفيّة تركيبها؛ لتصير بنياته كلها في النهاية في اتجاه وجهة النّظر التي كُتب من أجلها النّص الرّوائيّ، وتمرير الحلول المختلفة المطروحة عبر جماليّات السّرد، ومن ثم؛ تختلف النصوص السردية في تعبيرها عن الواقع حتى لو عالجت قضايا واحدة أو متشابهة؛ نظرًا لاختلاف دوافع الكتابة، وزاوية الرؤية، والقدرة على امتلاك الأدوات.

من أبرز المشاكل التي تعترض الباحث في مثل هذه الموضوعات –الحديثة– قلّة الدِّراسات التَّطبيقيَّة المُتخصّصة المرتبطة جزئيًّا أو كليًّا بموضوع الدراسة، فأغلبها تكتفي بالوصف دون الخوض في التَّفاصيل، أو تُركز على جانب المضمون بعيدًا عن دراسة الشَّكل، مما يجعلُ الجهد المبذول مضاعفًا في دراسة المضمون والشَّكل معًا.

وتهدف الدِّراسةُ إلى كشف الأبعاد الاجتماعيَّة لظواهر الحرب والمجاعة والوباء في الرِّوايتين محل الدراسة، والوقوف على التَّجليات والمظاهر، ورصد علاقة المضمون بالقوالب الشَّكليَّة المدروسة، دون التركيز على المقارنة المباشرة بين الرِّوايتين -كما سلف-.

ولم يأتِ اختيار العينة مصادفةً أو اعتباطيًّا، بل على معرفة بالرِّوايتين اللتين قاربتا ظاهرة الحرب والجوع والوباء بتفاوتٍ في الشَّكل والمضمون، وتمثِّل الحرب نواة الرِّواية (سفر برلك) لمقبول العلوي، التي تفرّعت عنها المجاعة والوباء، وقد أسهم هذا التّركيز على كشف الظّواهر في توجيه اختيارها عينة مهمّة للدّراسة، وفي المقابل جاء الاهتمام بالجوع والوباء في رواية (قنص) لعوَّاض العصيمي ثانويًّا، مرتبطًا بقضايا أخرى، حرص الروائي على معالجتها مرتبطة بالمجتمع البدوي الذي يعيش فيه، وما يعتريه من ظواهر اجتماعيَّة واقتصاديَّة وثقافيَّة تُؤثر في بنيته الكليّة، باستثمار المنهج البنيوي التكويني للمعالجة النّقديّة، وتوجّهت فكرة البحثِ إلى رصدِ التيمات، ودرسِها، وبيان علاقاتها البنيويّة بالسّياقات المولّدة لها، والنّاتجة عنها.

ورصد البحث مجموعة من الدّراسات ذات الصلة، أبرزها:

١- قراءة في رواية الوباء، محمد عبد الرحمن يونس، الموقف الأدبي، اتحاد كتاب العرب، المجلد ١٦، العدد ١٨٤، ١٩٨٦م.

٢- رواية الأصوات.. المكان.. الاحتمالات المفتوحة، قراءة لرواية "قنص" عمر بن عبد العزيز الرحيلي، النادي الأدبي بالمدينة المنورة، الآطام ، المجلد ٩، العدد ٢٦ ،٢٠٠٦م.

ارتكزت الدراسة على تفكيكِ البنيات السردية: المكان والزمان، والشخصيات؛ للوصول إلى الاحتمالات المفتوحة للأحداث من خلالها، وظلَّ اهتمامها على تيمة المكان وربطه بالبيئة الموازية له في الواقع.

٣- صورة حرب الخليج الثانية في الرواية السّعودية: دراسة موضوعاتية، فاطمة بنت صالح إبراهيم البرادي، سلسلة أبحاث طلاب الدراسات العليا في الأدب السّعودي، جامعة الملك سعود - كرسي الأدب السعودي، العدد٣، ٢٠١٦م.

سعت الدراسة إلى إلقاء الضوء على صور من حرب الخليج الثانية في الرّواية السّعودية خاصّة، دراسة موضوعاتية. بدأتْ بلمحةٍ تاريخية عن الحرب الخليجية الثانية، ثم رسم أبعاد المشهد الخليجي قبل الحرب، مركزة على تيمات ثنائية، مثل: الحرب والتوجس، الحرب والأمل، الحرب والعدوان، الحرب والعدل، ثم رسم أبعاد المشهد بعد الحرب، معتمدةً على تيمات ثنائيّة، مثل: الحرب والزهو، الحرب والإحباط. وأهم نتائج الدراسة: وجود علاقات وطيدة بين الرّواة وذاكرة الحرب، ومنطلق تلك العلاقات هو الأحداث والبنية الزمكانيَّة، والحدث الأهم هو (الحرب) في كل الروايات المدروسة؛ بوصفها المحرك الأساس في بنية الحكاية وآليات الخطاب، كما أنَّ معظم هذه الروايات سير

ذاتية للرواة، مما أعطى قيمة للدراسة، فكشفت عن التأثير الحقيقي للحرب على كل أفراد المجتمع وطبقاته الاجتماعية المختلفة.

٤- الجوع في الأدب العربي الحديث: دراسة في الأطر الإنسانية والفنية، مناف بسام علي، إشراف موفق رياض نواف مقدادي، دكتوراه، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، ٢٠١٦م.

٥- ثورات الجياع، د. صلاح هاشم، أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، وادي النيل-المهندسين - الجيزة، ط١، ٢٠١٧م.

وتنبغي الإشارة إلى أن الباحثة لم تقع بين يديها دراسة نقدية سابقة لعينة الدّراسة، وثيمة (الحرب والمجاعة والوباء) -حسب اطلاعها-، وما توفّر لها مراجع إلا ما أُشير إليه، ،واستعين به، بالإضافة إلا إلماحات في عديد من المقالات دون الخوض في التفاصيل، لذلك يمكن أن تحمل هذه الدّراسة الجِدّة والسّبق في التّحليل والمعالجة للنّصِ الرّوائي الحديث، مع ما تُثيره من تساؤلات إشكاليّة حول قلق الإنسان وخوفه ممّا يتربّص به من تحوّلات تحسر وجوده وحريّته، وتمثّل شكلًا متجدّدًا من التهديد مع ما يعيشه إنسان اليوم من قلق إزاء الأوبئة وتفشيها، وعجزه عن المواجهة...!

التّمهيد:

وُجدَ الأدب ليُعبر عن صدى النَّفس، وينقل الواقع الخارجي بشكل قائمٍ على التَّخيُّل، ويُقارب التَّجارب والتَّحولات الاجتماعيَّة، وتعدُّ الرِّواية من فنون الأدب الأكثر تماهيًا مع الحياة، وقد ارتبطت أول الأمر بالتّحولات الاجتماعيّة، وإذا "اعتبرنا أنَّ العمل الروائي هو موقف من الحياة والكون، أو رؤية لهذا العالم المصطخب، فإنَّ هذه الرؤية لا تكتمل إلا بتعاملها مع الواقع...، والرواية الناجحة هي القادرة على التعامل مع هذا الواقع بمعطياته المختلفة"[١] (يونس، ١٩٨٦م: ٦٥).

ويتخذ الارتباط بالحياة في الرِّواية شكلًا آخر، حيث تنفتح على الواقع التَّاريخي، وتمزجه بالواقع الاجتماعي والاقتصادي؛ لتُقدم صورة قائمة على النَّقد والرَّغبة في التَّجاوز والتَّغيير، ذلك أنَّ "التاريخ - كتاريخ لفترة زمنية محددة بحوادثها- ليس هدف الكاتب، إنما يستعين به لفهم الحياة من خلال دور الشخوص في تشكيل الماضي والحاضر"(يونس:١٩٨٦م:٦٤)[٢]، مع الحرص على البناء التَّخييلي القائم على الإبداع والمتجنّب للتّسجيل الحرفي. ويلتقط الرّوائي عددًا من الظَّواهر الاجتماعية تحت مجهره؛ لينقلها إلى عوالم روائية تقوم على التَّشويق والتَّطور الدِّرامي المُتنامي عبر تقنية الصّراع والسَّرد، وهو ما يؤكّد أنَّ العمل الأدبي صورة عن الواقع، لكنَّها صورة معدلّة

[١]يونس، محمد عبد الرحمن، قراءة في رواية الوباء، اتحاد كتاب العرب، مجلد ١٦، ع ١٨٤، ١٩٨٦م، ص٦٥.
[٢]المرجع نفسه، ص٦٤.

يدخلها التَّعبير الفني، ويعتمد الرِّوائي على شخصيَّات واقعيَّة ويُلبسها سمات من وحي مخيّلته الرّوائية؛ ليجعلها قائمة بدورها داخل فضاء الرّواية.

محاور الدّراسة:

أولًا: الوباء والجوع في الأدب:

١/١. حضور الوباء في الأدب:

شكَّلت الأوبئة والمجاعات والحروب ظواهر عايشت الإنسان الذي حاول جهد الإمكان مقاومتها، والتَّخلص من أضرارها، ولمَّا كان الأدب نتاجًا إنسانيًّا فقد حرص المبدعون على نقل هذه الظَّواهر وتاريخها فنّيًّا، ونجدُ في الأدب العالمي حديثًا عن الأوبئة والمجاعات والحروب، وتطوّر التَّعبير عنها تبعًا للتَّطور الفني للرِّواية، فانتقل من المباشرة والنَّقل التَّسجيلي إلى التَّخييل الإبداعي. وقد أرّخت أعمالٌ كثيرة لوباء الطاعون (شحود،)[٣]، كـ(دفتر أحوال الطاعون) لدانييل ديفو (١٧٧٢م)، و(حصان شاحب فارس شاحب) لكارتين ان بورتر (١٩٣٩م)، و(الطاعون) لألبير كامو (١٩٤٧م)، و(الحب في زمن الكوليرا) لماركيز (١٩٨١م)، و(العمى) لخوسيه ساراماغو (١٩٩٥)، و(عام الطوفان) لمارغريت أتوود (٢٠٠٩م)، وتُصنف ضمن الخيال العلمي، تحدّث فيها الكاتب عن مجتمع عشّش فيه الوباء، ما أدّى إلى أن تصل البشريَّة إلى حافّة الانقراض.

وفي الأدب كان الوباء مصدرًا مهمًا لبعض الروايات[٤]، وعُولج بطريقة زاوجت بين العكس والتِّخييل؛ مثل رواية (إيبولا ٧٦) للروائي السّوداني: أمير تاج السر، فقد وصف الوباء الذي ضرب الكونغو، وامتدَّ إلى مدينة أنزارا في جنوب السُّودان، وتقدّم الرّواية (صورة بانوراميَّة لمسار الوباء الذي انتقل من عاهرة في (كينشاسا) إلى جسد لويس نوا العامل في معمل للنسيج في أنزارا، ومنه انتشر إلى المدينة التي احتلها الموت). وفي رواية (اليوم السادس) لأندريه شديد إشاراتٌ متفرقة عن الوباء، وفي رواية (أمريكا) لربيع جابر عقد فصلًا عن الانفلونزا الإسبانية التي حصدت ثلاث عشرة ألف ضحِيَّة في فيلادلفيا.

وفي الرّواية المصريّة تناول نجيب محفوظ الوباء الذي قضى على حارات مصر وفتك بأهلها في رواية (الحرافيش)، وسلّط الضّوء على ما حلّ بالقرافة من موت، فكثرت النُّعوش، وتتابعت كالطَّابور، وساد النُّواح في كل بيت، وعلى الرغم من توارد الأوراد والأدعية إلا أنّ الموت استمرَّ في حصد الأرواح، "بل رأيت الموت أمس، ورائحته شممت"[٥]، ولمقاومة الوضع نصح شيخ الحارة النَّاس بتطبيق أوامر الحكومة لتجنّب الإصابة بالوباء، وذلك بتلافي الزِّحام في

---

[٣]ينظر: شحود، علا، بين الحقيقة والرمز كيف يحضر الوباء في الأدب، موقع الميادين .https://www.almayadeen

[٤]ينظر: خوري، إلياس، الوباء والأدب العربي الحديث: لماذا لم تلتفت الرواية العربية إلى الأوبئة، https://ar.qantara

[٥]محفوظ، نجيب، ملحمة الحرافيش، دار مصر للطباعة، ص٥٦.

القهوة والبوظة والغرز[٦]، كما أوصاهم بالنَّظافة وغَلْي مياه الآبار وشرب عصير الليمون[٧]، ويُشبُه ما في الرّواية من مشاهد وطرق تّصدٍّ للوباء ما يحدث الآن مع كورونا.

١/٢. الجوع في الروايات العربية الحديثة :[٨]

حرصت كثير من الرِّوايات العربيَّة على رصد ظاهرة الجوع، مقاربةً إياها بطرق مختلفة، و"تعددت الروايات العربية التي تناولت الجوع في أحداثها، فمنها ما جعلت منه الأساس الذي قامت عليه، ومنها ما قامت على تصوير الواقع الاجتماعي، مستعينة بالجوع بوصفه نتيجة رئيسية لهذا الواقع، وأخرى بحثت عن دور الإنسان في انتشار هذه الظاهرة في الوطن العربي، ومنها ما كان الدور السياسي أو فعل السياسة هو الفيصل في توسع هذه الظاهرة أو في إنتاجها وصناعتها" .[٩]

ومن هذه الرِّوايات رواية (الرغيف) لتوفيق يوسف عواد، التي أرّخت فنّيًّا للجوع في العهد العثماني، وسلّطت الضّوء على الاستبداد العثماني والاستيلاء على الطعام، ووصفت مشاهد الجوع والإقطاع[١٠]. ورواية (جوع الطفولة وطفولة الجوع) لمحمد ديب، نقلت الواقع الجزائري أثناء الاستعمار الفرنسي من حيث القمع والجوع والظُّلم في إطار فني أدبي[١١]. أمَّا (المذنبون) لفارس زرزور فعبّرت عن معاناة الفلاحين في سهل حوران مع الطّبيعة والإقطاعيين، إضافةً إلى المعاناة مع انحباس المطر والقحط وانتشار الجوع[١٢]. ورصدت رواية (خبز الأرض) لحسن نصر التَّعالق بين الخبز والأرض، وتناولت الفلاحين ومأساتهم وتمسكهم بالأرض التي تمثل الحياة[١٣]. وفي رواية (الرغيف ينبض كالقلب) لغادة السّمَّان[١٤]سطرت معاناة الفقر والجوع والحرمان التي عاشها الإنسان الكادح؛ بحثًا عن لقمة العيش، وصوّرتِ الحالة الاجتماعية البسيطة للعمّال. ومن أشهر الرّوايات التي تناولت الجوع بأسلوب

---

(٦)ينظر: المرجع نفسه، ص٥٦.

(٧)ينظر: محفوظ، نجيب، ملحمة الحرافيش، ص٥٦.

(٨) ارتبط الجوع "بالنواحي الاقتصادية المتصلة بالبقاء البيولوجي للإنسان أو غيره من الكائنات، بيد أن هناك مصطلحات جديدة لمفهوم الجوع... فتحدث رجال السياسة عن الجوع السياسي، وربطوه بالحرمان المتعمد لفئات سكانية من ممارسة السياسة، وربطه خبراء التنمية البشرية بالجوع الاجتماعي في إطار الحديث عن الاقصاء الاجتماعي وعلاقة الإنسان بالآخر.. بينما تحدث خبراء المياه عن أزمة الجوع المائي، وذلك عندما تكون كمية المياه العذبة المتاحة لمجتمع معين غير كافية لإشباع احتياجات أبنائه من مياه الشرب.. ومن ثم فإنَّ تحديد مفهوم الجوع لمحددات أو توازنات معينة تتصل بكل تخصص.. إلا أن مفهوم الجوع مرتبط إلى حد كبير بالنقص الحاد في العناصر الغذائية المطلوبة لاستمرار الحياة، ويصاب الإنسان أو الحيوان بالمجاعة عندما لا يتناول الطعام لفترة طويلة من الزّمن". هاشم، د. صلاح، ثورات الجياع، أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، الجيزة، ٢٠١٧، ط١، ص٢٣-٢٤.

(٩)علي، مناف بسام، الجوع في الأدب العربي الحديث: دراسة في الأطر الإنسانية والفنية، ص٥٠.

(١٠)ينظر: المرجع نفسه، ص٥١-٥٢.

(١١)ينظر: المرجع نفسه، ص٥٤.

(١٢)ينظر: المرجع نفسه، ص٥٦-٥٧.

(١٣)ينظر: المرجع نفسه، ص٦٢.

(١٤)ينظر: المرجع نفسه، ص٦٥.

مُغاير رواية (الخبز الحافي) لمحمد شكري، التي صورت حالة الجوع والفقر والتّشرد لإنسان جرفته الحياة إلى البؤس والجهل.[١٥]

وتدور رواية (جوع) لمحمد البساطي في ريف مصر، حيث معاناة الفقر والجوع والجهل[١٦]، ويُبرز هذا التتبع للرّوايات التي تناولت (تيمة) الجوع بأبعادها المختلفة حجمَ ارتباط الرِّوائيين بواقعهم وتاريخهم، والسَّعي إلى كشفه بُغية تجاوزه.

١. المتن الحكائي للرِّوايتين:

١/٢. المتن الحكائي لرواية (سفر برلك) :[١٧]

تبدأ الرِّواية من الوسط، حيث يقحمنا السَّارد مباشرة في أحداث درامية تحبس الأنفاس؛ فالشاب (ذيب) يقع ضحية لصوص يحترفون تجارة البشر، باختطافهم الأطفال والشباب الخلاسيين؛ ليبيعوهم في أسواق النخاسة، ويحاول السَّارد في البداية الاحتجاج والهروب دون جدوى، وينقل بعض المشاهد التي تبرز إجرام هؤلاء اللصوص؛ كإقدامهم على اغتصاب الطفل بالتناوب، وبعد رحلة مأساوية يصل (ذيب) إلى المدينة، ويباع للسيد (عبد الرحمن المدني)؛ ليصبح لاحقًا –وفق السّياق– موظفاً براتب، ويظن أنَّ أحواله تحسّنت وروحه استقرت، لكن حربًا قامت في المدينة التي استقرّ فيها، ممّا أدى إلى اضطرابات، أسهمت بدورها في قلّة المؤونة والطعام، وتسببت في انتشار المجاعة والموت، وكما يصف السّارد، فقد بلغ بسكّان المدينة المضطربة بيع لحم الإنسان، ممّا اضطر (باشا المدينة العثماني) أن ينتقل للسكن في دمشق، فيقع (ذيب) في قبضة الجنود العصمليين، وتبدأ رحلة جديدة، عنوانها الموت والجوع. وبعد انقشاع سحابة الاحتلال العثماني عن المدينة يعود (ذيب) إلى وطنه ويظفر بلقاء أمه.

٢/٢. المتن الحكائي لرواية (قنص) :[١٨]

تقوم رواية (قنص) على المطاردة، ويفيد العنوان هذه الدلالة، فـ(هذلا) الفتاة الشابة تثيرُ هوس الدربيل الذي يرغب في الظفر بها، كما يفعل مع من تزوجهن؛ ليشبع نهمه وهوسه الجنسي، لكنها تفرُّ منه بالهرب، وتبدأ في مسيرة

---

[١٥] علي، مناف بسام، الجوع في الأدب العربي الحديث، ص٧٠.

[١٦] ينظر: المرجع نفسه، ص٧٣.

[١٧] ينظر: سفر برلك نفير عام ١٩١٤): النفير العام والتأهب للحرب. معجم المعاني: https://www.almaany.com. سفر برلك كلمةٌ تركيةٌ تكتب seferberlik وهي كلمةٌ "مكونةٌ من مقطعين سفروتحمل نفس المعنى في اللغة العربية و برلكوتعني معًاأو مجموعة)، أي يصبح معنى السفر برلك هو السفر جماعةً بغرض التهيؤ للحرب، كما فسّرها البعض من خلال تقسيمها إلى ثلاث مقاطع سفروتعني ترحال و بركلمةٌ فارسية الأصل مشتقةٌ من كلمة بُردن)، وتعني إجبار أو حَمل ولكلاحقةٌ في اللغة التركية تحول الصفة إلى اسمٍ فيصبح المعنى إجبار الناس على السفر. ينظر: موقع: أراجيك، ما هو السفر برلك نفير عام ١٩١٤) .ويرى الكاتب السعودي محمد الساعد في كتابه سفر برلكصدر عن دار مدارك "أنّ ما قامت به الدولة العثمانية ما هو إلّا جريمة تهدف إلى سلخ المدينة المنورة عن الحرم المكي وتحويلها إلى ثكنةٍ عسكريةٍ؛ بغرض تتريكها فيما بعد؛ لتشكل آخر حدودٍ للدولة العثمانية داخل الجزيرة العربية بسبب خوفها من قرب تشكل الثورة العربية الكبرى، وانطلاقها على الاحتلال التركي آنذاك. إذ قام الأتراك بمد خط سكة حديد الحجاز بغاية ربط المدينة المنورة بمدينة إسطنبول عاصمة الدولة العثمانية، والاستفادة منه في تأمين طريقٍ لتهجير الشباب عبر القطار أثناء الحرب" .سفر برلك قرن على الجريمة العثمانية في المدينة المنورة، www.alarabiya.net

[١٨] العصيمي، عواض، رواية قنص)، دار الجديد، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.

السرد المحكي رحلة أخرى، يمكن تسميتها بالمطاردة، وفي جانب آخر يبدأ القناص رحلة مطاردة الصيد في الصحراء دون جدوى، وتتخفى (هذلا) في ملابس الرجال؛ لتتخفّى من الدربيل الذي تُحكى عنه قصص أسطوريَّة تُفيد انتماءه إلى جنس غير البشر، وتنتهي الأحداث بقيام القنّاص بالتَّخلص من الدَّربيل، وتبقى الأحداث مفتوحةً على عوالم غير متوقّعة.

٢. تجليَّات الحرب والجوع والوباء في الرِّوايتين:

١/٣. الحرب والفوضى في رواية (سفر برلك) باعتبارها قوة فاعلة: المظاهر والنَّتائج

تمثّل الحرب في رواية (سفر برلك) تيمةً رئيسة، تتفرّع عنها سائر التّيمات، وقوة فاعلة أساسية تُسهمُ في تطور الأحداث، من خلال ما تفرزه من أفعال وردود أفعال، فالفوضى التي سادت أرض الحجاز سببها الحرب العالمية الأولى، وتدهور حال العثمانيين، وقيام الثّورات ضدهم، وهو ما تشير له الرّواية ضمنيًّا، فقد غابَ الأمن وصار الميدان خاليًا للصوص وقُطاع الطّرق لممارسة إجرامهم، مما أفرز فوضى وتسيّبًا، فقد جاء على لسان الشّخصيّة وصفُ هذه الحالة: "سمعتُ نتفًا من حديثِهم أثناءَ سيرنا، أنهم كانوا يوزعون العبيد والجواري في قوافل متعددة، يبيعونهم عن طريق المقايضة: عبد مقابل عبد، جارية مقابل جارية أو مقابل قطعة من السلاح" .[١٩]

لقد كَثُرَ الاختطاف وتفشّت تجارة البشر، وغاب الاطمئنان، مما يجعل حياة الإنسان على المحك، فأظهرت الرواية أنَّ قُطاع الطُّرق وتجار العبيد يتنقلون بيُسر، ويبيعون المختطفين في وضح النهار، ما يدلُّ أنَّ تجارة العبيد كانت رائجة في ذلك الزَّمن المنتهك لقيمه وقيم الإنسان، ففي ظلّ ظروف الحرب يُمارس المختطفون عملهم بكلِّ أريحية، بعيدًا عن أعين السُّلطة، ويصور السَّارد طريقتهم البعيدة عن الإنسانية في التَّعامل مع المختطفين؛ إذ يكبلون القدمين بالحديد[٢٠]، ويمارسون التعذيب والتنكيل ضد من يحاول الهرب، وتصف الشّخصيّة (ذيب) هذا المشهد بقولها: "فلمحتُهم يقيدون خالي مانع من قدميه ويديه، ويحشون قطعة من قماش في فمه، عصبوا عينيه بعصابة سوداء"[٢١]، هذا إلى جانب الضرب والتجويع لضمان السُّكوت والرِّضا بالواقع والاستسلام.

ويتّسمُ المختطفون بالذكاء، فهم يسيرون في طُرق غير معروفة[٢٢]، و"في بطون الأودية المعزولة التي لا يطرقها البشر"[٢٣]، وأثناء السير يمارسون أفعالًا إجراميَّة، ويواصلون عمليَّات الاختطاف، فقد "أغاروا في طريقهم على بعض الخيام البعيدة عن الناس، أسروا شبابًا يافعين مثل سِنّي وأصغر، كانوا جميعًا في مثل لوني المحروق كما

[١٩]العلوي، مقبول، سفر برلك، دار الساقي، ٢٠١٩م، ط١، ص ١٤.
[٢٠]المصدر السابق، ص١٥.
[٢١]المصدر نفسه، ص١٩.
[٢٢]العلوي، مقبول، سفر برلك، ص٢٥.
[٢٣]المصدر نفسه، ص٢٥.

كانت تَصفني أمي"[٢٤]، ويقتلون من تُسَوِّل له نفسه الهرب[٢٥]، والهدف من مُمارسة التّعذيب والقتل هو ضمان الانصياع التّام: فـ"جعلوا منا عبيدًا بالقوة، تحت سلطة الخوف والرُّعب".[٢٦]

يتفنّن اللصوص في مُمارسة سلطتهم، والتّجرد من إنسانيّتهم؛ ضمانًا للرّبح المادي، ويُلخّص هذا المشهد الواقع المرير المُظلم لتلك الحقبة، والراوي بهذا السردِ يبرزُ الأمراض الاجتماعية التي تفتك بالمجتمع؛ ويفضح تلك الممارسات التي تهزّ القيم المجتمعيّة:

- "على ظهور الحمير عبيد صغار السن، عددهم أربعة أولاد يافعين، وأنا خامسهم، مربوطة أيديهم خلف ظهورهم".[٢٧]

- "ابتسم له العصملي حين قذف الأخير له بكيس النقود. سأله بعربية مكسرة: "ماذا معكم؟".

قال متصرف القافلة بنبرة هادئة: "عبيد، برسم البيع".

أمسك الجندي العصملي بطرف شاربه، وقال له وعيناه تفتش في وجوه أفراد القافلة: "هل لديك جوار في قافلتك؟".

أجاب الأخير بحزم: لا!".[٢٨]

ومع الحرب تَسُوْدُ كلُّ أشكال الظُّلم وفنونه، فـ"ذات مساء التقوا بعض رفقائهم من قُطاع الطُّرق واللصوص، تبادلوا معهم بعض الأطفال المخطوفين اليافعين، وبعض الملابس والأسلحة، والخيام الصغيرة الحجم التي يمكن نصبها بسرعة"[٢٩]. وإذا كان اللصوص متجرّدين من إنسانيّتهم فيُصبح الإقدام على أي فعل مناف للأخلاق مقبولًا، فقد "صحوتُ في منتصفِ الليلِ على صوت صرخات، رفعتُ رأسي فوجدتُ اثنين من رجال القافلة يمسكان بالفتى الصغير فارس بقوة وهو يحاول التملص منهما، بكى، فصفعه أحدهما على وجهه صفعة مزّقت سكون الليل، ثم سحبه رجال القافلة على الرمال مثل شاة ذبيحة، وابتعدوا قليلاً عن مكان النوم، فهمتُ الذي يريدون فعله بهذا الطفل المسكين...رأيتُهم في ضوء القمر يجردونه من ثوبه الأبيض، ثم يتناوبون ...، سففتُ التراب من فمي من الغضب، وعضضتُ على ظاهر كفي من الغيظ، لمحته يستعطفهم بصوتٍ باكٍ أنْ يتركوه وشأنه، ولكن بلا فائدة، ومدُّوه حتى خلف ظهره، تلاشتْ قواه فلم يعد يقاوم، سلَّمهم جسده وهو يئن من الألم ...عندما فرغ آخر رجل تركوه في مكانه"[٣٠]. ويضيفون إلى الاغتصاب القتل بدم بارد ودفن الجثة وكأنَّ شيئًا لم يكن، ووضعية الفوضى هذه سببها ضعف الدولة العثمانية، وغياب السّيطرة على الأماكن، ويظلُّ غيابُ الأمن سببًا في تفشّي التّسيب، فقد

---

(٢٤)المصدر نفسه، ص٢٦.
(٢٥)المصدر نفسه، ص٢٦.
(٢٦)المصدر نفسه، ص٢٧.
(٢٧)المصدر نفسه، ص٥.
(٢٨)المصدر نفسه ص٧.
(٢٩)المصدر نفسه، ص٢٩.
(٣٠)العلوي، مقبول، سفر برلك، ص٣١.

نصح بعضُ القادمين من المدينة بعدمِ المخاطرة بالعودة لئلا يتعرض للقتل من قطاع الطرق ولصوص القوافل الذين ازدادوا شراسة بعدما شعروا بضعف الولاة .[٣١]

وفي ظلّ واقع الحرب تنتشر كلُّ السلوكيات المنافية للخلق والقانون، فقد (بدأ الناس يهربون من الجوع والحصار بإعطاء الرشى للجنود[٣٢]، وكل من يحتج يسجن[٣٣]، وإعدام من نادى بالانفصال والتحرر[٣٤]، كل ذلك من أجل فرض الانصياع بقوة الحديد والنار، هذا إلى جانب هدم المنازل والأسواق، ممّا سبب دمارًا وخرابًا. وفي أثناء هذه الأحوال انتشرت السرقة والقتل.([٣٥]

ومن ناحية ثانية، فقد أسهمت الحرب في كوارث أكبر[٣٦]، أبرزها تهجير النّاس وقتلهم، وانتشار الجوع والموت والدّمار والفوضى، وتصوّر لنا الرّواية أيضًا حال المدينة بعد إعلان قرار الإفراغ والتّهجير، وكيف سادت المجاعة وقلّ الطّعام، وصارت المواد التموينيّة من الأرز والتّمر مرتفعة الأسعار، وباع الإنسان منزله ليُنقذ نفسه وأهله من الموت. والملاحظ أنّ السَّارد قد ابتعد في تصويره الحرب عن الاكتفاء بالناحية التَّسجيلية، بل سلَك طريقِ التَّخييلِ لتشويق المتلقي وشدّ انتباهه، ممَّا يُضفي على الأحداث طابعا تخييليًّا يُبعدها عن التَّقريرية التي تنأى بها عن العمل الفنّيّ.

٢/٣. الجوع في روايتي (سفر برلك) و (قنص): الأسباب والمظاهر

يُمثّل الجوعُ التيمة السَّردية الأكثر تكرارًا في رواية (سفر برلك)، وترتبط بالحرب ارتباط السّبب بالنتيجة، فمَع بدء الثّورات على العثمانيين، ووصول الدّولة العثمانية إلى مرحلة التّدهور، انتشرت الفوضى وقلّ الأمان وكَثُر النّهب، فرصدت الرّواية ما حلّ بالمدينة من حصار وتفقير وترهيب وتهجير من قبل الباشا العثماني[٣٧]، ونتيجة قراراته والاستزادة من الجنود كَثُر الجوعى في الأزقة، وأُغلقت المحلات، وانتهى ما في السُّوقِ من مُؤن، ومع جنوح الجنود إلى النّهب ازداد الوضع سوءًا، وازداد النّاسُ جوعًا وفقرًا، وبرزت تصرّفاتٌ خطيرة تمثّلت في بيع المنازل بثمنٍ بخس يصل إلى كيس أرز، وبيع لحم البشر الميتين، ولا شكَّ أنّ الرّواية تنقل بعض التّفاصيل التي تعطي صورةً

---

[٣١] المصدر السابق، ص١٣٢.
[٣٢] المصدر نفسه، ص ٨٣.
[٣٣] المصدر السابق، ص٨٥.
[٣٤] المصدر السابق، ص ٨٦.
[٣٥] المصدر السابق، ص٨٩.
[٣٦] إنّ ما ترصده الرّواية من الفجائع والكوارث الإنسانيّة التي تحدثها الحروب لا يقتصر على أزمنة وأمكنة محدّدة، إنما هو انعكاس لمراحل ومواقع مختلفة -حتى اليوم-، وبذلك "يكون العالم قد أعلن إفلاسه في القضاء على أسباب الحروب؛ لأنه أفلس في القضاء على الجوع والبؤس والجهل، ولأنه أفلس في تنمية روح التعاون بدلًا من روح النقمة والاستغلال والعدوان. إفلاس العالم بعد كل النظريات الفلسفية والاجتماعية والدينية والأخلاقية المناهضة للحرب يضع الإنسانية أمام امتحان ضمير...". غلّاب، عبد الكريم، أزمة المفاهيم وانحراف التفكير، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة الثقافة القومية ٣٣، بيروت، ط٢، ٢٠١١م، ص٢٨١.
[٣٧] هذا أحد الأسباب الكبرى للجوع، ومن ثمّ انعدام الأمن وتفشّي النّهب والسّلب، وذلك بانعدام حدود سُلطة المسؤول؛ إذ "لا تُغْمَر السلطة في الاطلاق والغموض فحسب، ولكنها تُغْمَر في العبث والتجاوز، حتى إنك لتجد كل ذي سلطة يتوسع في استغلالها والتحكم بها، فيعود بالسلطة المضبوطة بالقانون إلى سلطة اللا قانون...". عبد الكريم غلّاب، مرجع سابق، ص١٦٣.

عن واقع الحال زمن الحروب والمجاعات، وهي بذلك تُرسل رسالة مفادها ضرورة تجنّب ويلات الحرب والصّراع التي تفضي في النِّهاية إلى هلاك الإنسان، وتوجيه الناس إلى ضرورة عدم الانخراط في تكتلات مسلحة وصراعات تسبب الفوضى.

كما يمكن القول بناء على الاندفاع –اللا مسؤول– خلف الذّات وما تُمليه الرّغبات: إنّ لكل جوعٍ مسبّباته وطريقته في الإشباع، ولكلِّ جائع مقدارٌ في الاكتفاء، فبواعث الجوع ومسبّباته وطرق إشباعه مثار خلاف، لا يمكن التنبؤ بنتائجها، سواءٌ في الدَّائرة الصغيرة أو الكبيرة، فالقطيعة أو العزلة والانفصال أحد مسبباته؛ والنتيجة وباءٌ ظاهرٌ أو ضمني، وقد تكون العلاقة تبادليّة بين الجوع والوباء، فيتقدّم أحدهما على الآخر.

وهذا ما صوّرته رواية (سفر برلك)؛ فعوامل الضّعف السياسي والاجتماعي والاقتصادي تدفع المجتمع إلى ويلات الحرب والانفلات الأمني وانعدام الاستقرار، وسيادة العنصريّة والجهل، وتهميش المصالح العامة مقابل الخاصّة؛ بغية البقاء والاستحواذ، وبذلك أسهمت الحرب في انتشار الجوع، وكان ظلم الباشا سببًا في تفاقم الواقع لتنفيذ خطة التّرحيل والتّركيع، فـ"أقفلُوا الحوانيت والدكاكين بكاملها، فإذا جاع هؤلاء العربان فسيخرجون من المدينة صاغرين. امنعوا البيع والشراء بكلِّ وسيلة، وصادروا كل ما تجدونه من مواد غذائية حتى التمر" .[٣٨]

ولتنفيذ أوامر فخري باشا، كوَّن ناجي كاشف "فرقة من الجنود، وهجم على الحوانيت وصادر البضائع والمواد، وأغلق الأسواق ومنع البيع.. واستولى على أكياس الحنطة "اللقيمي" والحنطة "المعية"...، واستولى على العيش الجاف المعروف بـ"القنيطة"...، ومنع بيع التمر في سوق التمَّارة بالقرب من باب المجيدي" .[٣٩]

وأمام هذه الأفعال أصبح شبح المجاعة يهدّد المدينة، وازداد الأمر سوءًا بكثافة الجنود العثمانيين على المدينة، "وبسبب وجود هذا العدد الهائل من الجنود العصمليين، بدأت الأرزاق والمواد الغذائية تختفي من الأسواق، والحوانيت والدكاكين تغلق أبوابها بسبب شح التموين، ونهبها من الجنود الغاصبين"[٤٠]، ولأن الجنود القادمين الذين صاروا كالجراد: "كانوا يحتاجون إلى مزيد من الإعاشة والغذاء، أدّى هذا إلى مصادرة ما تبقّى من أغذية وغلال شحيحة من الأسواق"[٤١]، وأصبح الجنود يهجمون على البيوت للاستيلاء على الغذاء، وبدأ وجه المجاعة المخيف يطل[٤٢]. إنها الحرب الاقتصادية المتمثّلة بمصادرة الغذاء وربما الدواء، وكل مستلزمات الحياة ومقوِّماتها؛ لإذلال النّاس وإخضاعهم إلى هيمنة المحتل وفرض شروطه وأجندته.

---

(٣٨)العلوي، مقبول، سفر برلك، ص٨٠.
(٣٩)المصدر نفسه، ص٨٠-٨١.
(٤٠)العلوي، مقبول، سفر برلك، ص٧٧.
(٤١)المصدر نفسه، ص٩١.
(٤٢)المصدر نفسه، ص٩٢.

أسهمت هذه الأسباب في نتائج كارثية، إذ "قلَّتِ الأرزاق واختفت، وتلاشى ما عند الناس من مخزون قمحٍ وشعيرٍ وتمرٍ ادَّخروه للأيام السوداء التي حلَّت عليهم أسرع ممَّا كانوا يتوقَّعون"[٤٣]، وأصبح "الجياع يملؤون شوارع المدينة وأحياءها، ويتقاتلون على كسرةِ خبزٍ أو تمرةٍ ملقاة على الأرض"[٤٤]، ومع تفشي الجوع واختفاء الغذاء "أكل الناس الكلاب والقطط بسبب مصادرة فخري باشا كل المحصول الزراعي...وسلب الجنود من الرعاة قطعانهم من الأغنام والخراف والإبل. حتَّى مَن كانَ يملكُ المالَ، فقد كان لا يساوي شيئًا، فمن كانَ يملك المال، لا يجد من يبيعه بهذا المال ما يتبلّغ به المرء من قمح أو طين أو أرز" .[٤٥]

وفي ظلِّ شيوع المجاعة أصبح الغذاء مطلبًا عزيزًا، وهو ما يصوّره لنا المشهد المأساوي التَّالي: "في مساء أحد الأيام، جاء أحد أصحاب سيِّدي عبد الرحمن.. وقال له واللوعة تلوِّنُ كلماتِهِ: إنَّه باعَ بيته (ذا الطوابق الثلاثة) مقابلَ كيسٍ من أرز؛ ليقيَ عائلته شرَّ غائلةِ الجوع"[٤٦]، ومن أبشع نتائج المجاعة بيع لحم الإنسان الميت، "وطلب منِّي ومن مرجانة ألا نشتري اللَّحم من الجزَّارين في السوق أو داخل البيوت؛ لأنَّ بعضَ الرجال اكتشفوا أنَّ جزارًا يقيمُ في حوش أبي ذراع يبيعُ لهم اللَّحمَ بطريقةٍ سريةٍ في بيته بعيدًا عن عيون الجنود، ولكنَّهم اكتشفُوا أنَّ اللَّحم الذي كان يبيعه كان بشريًّا، فقدْ دأبَ هذا الجزارُ على مراقبة الجنائز ومتابعتها، وحالما يخرجُ الناس من المقبرةِ كان يحفر القبر مرَّة أخرى فيستخرجُ جثَّةَ الميتِ بعد حلول الظلام، ثمَّ يعودُ بها إلى منزله، فيقطعها ويبيعها للناس في اليوم التالي!"[٤٧]. إنّها المأساة البشرية التي تتعاظم وتزداد بفعل الاحتلال، وأولئك التجار الذين لا يخافون الله، فتتفسخ عُرى المجتمع وينعدم الأمن والثقة بين الناس.

وتبدو العلاقة تبادليّة بين الجوع والوباء؛ فحين تفشَّى الجوع وخرج عن المسار، تبعه تدّنٍ على جميع الجوانب الاجتماعيّة والاقتصاديّة والإنسانيّة، فظهر الوباء متزامنًا معه؛ فتتسارع أحداث النشأة، فلا تتبيّن خيوط وخطوط سيرهما، ممّا يُعجّل في الانتكاسة التي لا يمكن تداركها كما أشارت إلى ذلك أحداث الرِّواية، فعلى أرض الواقع أصاب الجوع أجساد النَّاس وظهر في ملامحهم وأجسادهم، و"كان هناك بشرٌ مثل الأشباح، هزيلو الأجساد، مجرَّد لحم على عظم، كأنَّهم موتى خرجوا من قبورهم بعد دفنهم بأيام!، عيونهم زائغة، ثيابهم ممزَّقة، روائح كريهة تنتشر في كل مكان"[٤٨]. ولعلَّ تمدّد ظاهرة الجوع واستفحالها في أوصال المجتمع هي من نواتج الاحتلال، وهيمنته على الأوضاع، والتحكم بمسارها لصالحه.

---

[٤٣] المصدر نفسه، ص٩٢.
[٤٤] المصدر نفسه، ص٩٢.
[٤٥] المصدر نفسه، ص٩٢.
[٤٦] المصدر نفسه، ص٩٥.
[٤٧] المصدر نفسه، ص١٠٠.
[٤٨] العلوي، مقبول، سفر برلك، ص١١١.

وكما كان الجوع قوةً فاعلةً في تدهور الأوضاع فقد صار قوةً فاعلةً معاكسةً . ثنائيّة الحدث/تُقابل المعنى . أسهم في انقشاع سحابة الظّلم بعد تدهور حال الجنود؛ "بسبب نقص الغذاء والدواء، فقد هرب الكثير منهم، وبعضهم فتكت بهم الأمراض"[٤٩]، كما انخفض عددهم من العشرين ألفا إلى الألف بسبب ندرة الطعام، ما أدى إلى هروبهم، ودفع بفخري باشا إلى مغادرة المدينة قسرًا تحت القوة والأمر ترك المدينة[٥٠]، الأمر الذي عجّل ببداية انقشاع سحابة الفوضى والحرب والجوع، ومهّد لعودة المدينة إلى حالها واسترجاع عافيتها، تلك هي سنة الحياة، فقد انقلب السحر على الساحر، وتلك الشرارة التي أشعلها المحتل في ذلك المجتمع، ارتدّت عليه فأصابته في مقتل.

وورد الجوع في رواية (قنص) موضوعًا ثانويًّا مباشرًا . رغم تشكّله عنوانًا رئيسًا ضمنيًّا . ضمن موضوعات أخرى تُشكّل البناء الفسيفسائي للأحداث، فالبدو غالبًا يعانون من الجفاف والقحط وندرة الأمطار؛ ما يُسبب قلّة الطّعام، ويسبب مع مرور الوقت الجوع أو المجاعة. وفي الرواية بحثٌ حثيثٌ عن الطعام عن طريق الصيد، وتصور واقع البدو وبحثهم عن اللباس والطعام والصدقات.

تقوم الرّواية على فكرة الهروب، وتحديدًا على ثنائيّة[٥١] البحث والهروب . تقابل وتناقض، فـ(هذلا/ناشي) تهرُب من الدربيل الذي يمثل الموت، والدربيل (فرحان/القناص) يُطارِد (هذلا) التي تمثّل بالنّسبة له جرعة جديدة، تساعده على الحياة، فالنّساء هن اللواتي يمنحن طاقة الحياة. ويمكن اعتبار حالة (الهروب) بين القنّاص والفريسة شكلًا من أشكال الجوع، ووجهًا لنَهَم غير محدود؛ إذ يتمثّل الجوع من خلال اندفاع الغرائز وانعدام تقييدها، وترويض مسارها، فالشّخصيّة/القنّاص يصوّر مشهدًا لرغبة الإشباع الذّاتي، بعيدًا عن الرقابة والرّقيب، والذّوق والخلق، فيندفع وراء غرائزه غير مكترث بمن حوله، لا نظام أرض . صحراء . يحكمه، ولا جماعة . البدو . تردعه، فالمرأة تمثّل له رمزًا لاستزادة شبعه، وارتجاف نهمه الممتد؛ فيعكس الحدث صورة اضطراب الشخصيّة، وانعدام اتزانها، وضياع هُويّة المكان والجماعة والإنسان في ظلِّ انعدام الأمن والكرامة. للمرأة والجماعة، ووجل الجماعة من تحرّكات الدربيل (اللا مسؤولة)، بين موجِّه (القناص)، وموجَّه إليه (العذراوات) الرّابضات تحت سلطة الزواج القسري.

يتجلّى القنص بفعل قنّاص ماهر، تمرّس على الصيد، وامتلك أدواته، ومفاتيحه، ولكنّه تجرّد من صفاته الإنسانيّة؛ بغية الشبع دون الإشباع، مسار الذّات السالب مقابل الآخر المسلوب (ذاتًا وجماعة)، ممّا أخلَّ ببنية الصّحراء ذات الصّوت الواحد، والكلمة الجامعة عُرفًا، والتربة المتماهيّة مع الأجساد؛ حمايةً لهم، ومنحًا للحياة، ولافحةً

---

[٤٩] المصدر نفسه، ص١٣٦.

[٥٠] المصدر نفسه، ص١٣٥-١٣٩.

[٥١] يشكّل اتكاء الرّواية على الثّنائيّات مساحةً للتّخيل، وثراء للمتلقي؛ إذ يتدخّل في بناء النّص بمخيلته، ويندفع نحو اتّخاذ مواقف متباينة تبعًا لتوجّهات السّارد والشّخصيّات -من خلال تبنّي موقف كل طرف-؛ فـ"تولّد الثنائيات الضدية فضاء مائزًا للنص، إذ تجتمع جملة علاقات زمانية ومكانية، وفعلية بأزمنة مختلفة، فتلتقي هذه العلاقات على أكثر من محور، تلتقي وتتصادم وتتقاطع وتتوازى، فتغني النص، وتعدد إمكانيات الدلالة فيه، فالتضاد الفعلي والاسمي يشكل عالما من جدل الواقع والذات في صراعها مع الحياة...". الديوب، سمر، الثنائيات الضدية دراسات في الشعر العربي القديم)، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، د.ط)، ٢٠٠٩م، ص٦.

لأجسادهم بقسوة الشمس الحارقة؛ إمعانًا في الحفظ، ودفعًا لأي هجوم يقلق وجودهم، والمفارقة هنا أنّ (القنّاص) جزء من الذّات، عارفٌ بتفاصيلها وأسرارها؛ لذا كانت تحرّكاته مثار قلق وتوجّس الأجساد، وحيرة الأصوات، بعيدًا عن أصحابها وضياعهم وتنكرهم في المكان والحدث، فكانت البداية عتبةً لصوتٍ خفي –السّارد العليم– يُحيل صوت الصّحراء المدرك لتفاصيلها وأحداثها وزمانها: "حدث ذلك في غَسَقٍ بَعِيدٍ ومُبْهَم"[٥٢]، إجابة على سؤال مبهم ومتعدّد كغموض الزّمن.

ويواصل السّارد وصفه حال شخصية أنثى: "كانت تتحدث عن نارٍ كبيرةٍ تأججت في مساء بعيد لسبب لا تعلمه، فجذبها وهج النار من بيت أبويها الصغير الواقع في آخر البيوت، وقَفَتْ حافيةً أَمَامها مبهورةً من ضخامتها، وكثْرةِ ألسنتها، لكن المفاجأةَ الكبرى بالنسبة إليها هي أنها لَمَحتْ في ألسنةِ اللهبِ صورتَها طويلة، حمراء، لأسنانها بريق ذهبي لامع.

مذهولة وخائفة، سألت نفسها:

ماذا يعني أن تعرض النار صورتي بهذا الشكل؟

ولمَّا لم تحر جوابًا، فكَّرت على عجل:

ربما لأَحترق بها ذات يوم" .[٥٣]

جاءت تساؤلات الذّات هنا صدًى لإجابات لاحقة، ومفاتيح لحدثٍ تشكّل نتيجة قلق وجودي، تمثّل الملامح الضّبابيّة التي عكست احتراقَ الذّات، وانشطارها إلى نار ونور لامع. ويشي النّصُّ تارةً بالجسد الأنثويّ من خلال الكلمات؛ فعل واسم– (كانت/ تتحدث/ لا تعلمه/ جذبها/ أبويها/ وقفت/ مبهورة/ ضخامتها/ لمحت/ صورتها/ طويلة/ لأسنانها/ مذهولة/ خائفة/ سألت/ نفسها/ فكرت)، وأخرى تمثّلت في صفات ذكوريّة استنكرتها حين استفهامها: "ماذا يعني أنْ تعرض النار صورتي بهذا الشكل؟"، وكان جوابها: "ربما لأحترق بها ذات يوم". ←رؤية استباقية لما سيؤول إليه حالها، فكانت العبارة ممهّدة ومبرّرة لما سيأتي بعدها ممّا ترفضه الذّائقة، وتستهجنه الفطرة.

٣/٢/أ. المرأة والرجل: الإثارة بين الجسد والفكر:

يصير طلب الطّعام مستحيلًا في عالم الصَّحراء؛ فيفرض الاضطرار أكل كلَّ ما وُجد؛ حفاظًا على الحياة، فقد "أكلوا معه كلَّ شيء حتى الحيات التي كان يقطع رؤوسها وأذنابها ويلقي بها في النار، حتى القنافذ، والأورال الهزيلة عند الحاجة، وإذا لم يجدوا ما يأكلون يميل بهم إلى النباتات وأوراق الشجر"[٥٤]، هذه الإشارة التي ترد في

---

[٥٢]العصيمي، عواض، رواية قنص)، ص١.

[٥٣]المصدر نفسه، ص٢.

[٥٤]العصيمي، عواض، رواية قنص)، ص١١٠.

سياق الحديث عن القناص ومن أسروه، تُظهر بوضوح حقيقة الحياة في وسط الصحراء حيث لا حياة ولا ماء ولا زرع.

ومن الواضح ورود ذكر الجوع والوباء في الرّواية عرضيًّا –مفهوم الجوع المباشر–، ويمثل الملمح الثّقافي المرتبط بالأنساق الثَّقافيَّة المُضمرة والفكر الخرافي أبرز ما في الرِّواية، لكن الإشارات الهامشيّة التي ترد في ثنايا السّرد تُعطي فكرة عن طبيعة الظّروف الاجتماعيّة والاقتصاديّة التي يعيشها البدو في الصّحراء. وفي الصحراء، أيضًا يندر الطعام، فهي عالم مترامي الأطراف، عنوانه القحط والهلاك، "هاله الأمر، أيعقل أنْ يمشي أربعة أيام متواصلة، لتكون الخاتمة بهذا الشكل؟ كانت المرات القليلة التي قدم فيها على المنطقة من أجمل رحلاته التي يتذكرها رغم مرور عشر سنوات على آخرها. يذكر أنه اصطاد ضبعا أشهب في اليوم الأول من رحلته الأخيرة، وعلّقه في شجرة على قارعة الطريقة"(٥٥). وفي هذه العوالم الفارغة يقضي البدوي الأيام والليالي في الصحراء؛ بحثًا عن الصيد الذي يسدُّ به رمقه ورمق أولاده، لكنه يظفر بالصدمة، فـ"لم يسعفه أنفه برائحة مألوفة حينما قرَّبه من التراب، وشرع يشمه مرة بعد مرة في مكان تلو آخر، كانت الرائحة واحدة لا تتغير ولا تضعف، رائحة جلد يتحلل" .(٥٦)

ومن ثمَّ يجد الفقراء أنفسهم أمام واقع مرير من الجفاف المستمر، الذي يكون فيه توزيع الصدقات محاولةً لتخفيف ألم الجوع والمعاناة على البدو، و"بثوب مغبر مكرمش، وشماغ قديمة لفتها حول وجهها، لحقت هذلا بأبيها الذي كان يعدو مدفوعًا بخبر غير مؤكد عن وجود قافلة سيارات توزع صدقات من الناحية الأخرى من الوادي. مضت أربعة أعوام منذ جاء إلى هذا المكان، وهو يسمع في نهاية كل رمضان أنَّ مجموعة كبيرة من السيارات ستقوم بتوزيع الصدقات بالتساوي على الجميع: ثياب، شمغ، ... وكلها أُرسلت من جمعيات خيرية، ومن أغنياء في البلدة المجاورة تُطلق عليهم حاشياتهم أحباب الجياع والفقراء".(٥٧)

والغريب ارتباط الصدقات بتزايد المعاناة التي تصل عادةً إلى درجة العري والجوع، "وبعد مضي وقتٍ اختفى أو يكاد الثوب الأخير (المشترى)، وانتشر على الأجساد لمعان الصدقة بشكلٍ عام، حتى إن بعض الخبراء في تتبع ومراقبة نشاط توزيع الكُسى، صار يعرف بالخبرة أنَّ الكمية كلما ازدادت أصبح بالإمكان القول بأنَّ عدد العراة زاد عن الحد الذي تُغطيه الزيارات المعتادة، وكلما انقطعت الزيارات فترة من الوقت، تجدد القول بأنَّ حملة التبرعات لا بدَّ توجهت إلى مكان آخر في الصحراء أكثر عريا".(٥٨)

---

(٥٥)المصدر نفسه، ص٣٥.
(٥٦)المصدر نفسه، ص٣٧.
(٥٧)المصدر نفسه، ص٤٣.
(٥٨)المصدر نفسه، ص٨٣.

وهكذا نلحظ أنَّ الجوع مثّلَ واقعًا مريرًا قاسيًا في البوادي السحيقة، التي تبعدُ عن مراكز التحضر، وتزيد خصوصية الطبيعة وصعوبة المناخ من تكريس هذا الواقع، حيث يشيع الجفاف وندرة الطعام ويقل الصيد، وأمام هذا الواقع يتهدد وجود البدو ويضطرون إلى الترحال، وقد عالجت الرواية هذا الواقع بطريقة رؤيوية موغلة في التجريد.

ب. الوباء في رواية (سفر برلك) و(قنص):

يرتبط الوباء ارتباطًا سببيًا بالحرب والمجاعة، ويرد ذكره في الرواية عرضيًّا، ولا يتدخل في تحريك مسار الأحداث، فالأم تحكي لابنها عمّا عاناه أبوه بعد إصابته بالجدري الذي كان شائعًا في فترة من الفترات–حقبة الرواية–: "كانت أمي تحكي لي عن موت والدي. مات بالجدري.. أصيب أبوك بالجدري بعد انتهاء موسم حج عمل فيه بكد مطوفًا ودليلًا مع حجاج جاؤوا من بلاد شنقيط. مع نهاية الحج تفشى فيهم مرض الجدري فانتقلت العدوى إلى أبيك".[٥٩] ويعتمد السّارد في سرده قصة الأب مع الجدري على الإشارة والحذف، إذ يفهم القارئ أنَّ مرض الجدري كان متفشيًّا، وأصاب الكثيرين، مما اضطر السلطات على عزل المرضى في المحجر تجنّبًا للانتشار والتفشي، فـ"رفض الأب الذهاب للمحجر الصحي في جدة، لكنه مات وفتك به المرض، وبعد العودة استولى الغرباء على البيت في مكة، وهم أقرباء عمدة الحي، واستولوا بعد ذلك بقوة الظلم على البيت"[٦٠]. ومع أنَّ حدث الجدري يرد ثانويًّا إلا أنّه يُعطينا صورةً واضحةً عن فترة مُظلمة كان عنوانها انتشار الأوبئة والمجاعات والحروب.

وفي تلك الصحاري المترامية الأطراف يغدو الوباء ملازمًا لسكانها؛ فيحرمهم لذّة العيش، ويزيدهم الجفاف سوءًا إلى سوء أوضاعهم، فقد "هالهم باب السماء فتعلموا الخشية وانكسار القلب، لكن الوحوش الجائعة والتي يجزمون أنها لا تملك أية فكرة عن باب السماء، لم تعبأ بصلواتهم ولا بصيامهم، بل استمرت في افتراس طمأنينتهم، وإقلاق راحتهم، اللصوص هاجموهم. المحتالون الذين يشترون منهم الغنم بأثمان زهيدة تكاثروا عليهم. أما الرياح الشديدة والمحل، والأوبئة فتصوروا أنها ستتوقف بعد أجيال قليلة من وجودهم في الصحراء أقوياء، إذ في الكثير القوي تفسد شراهة الوباء. وتتمزق الرياح العاصفة، ويهطل المطر، كما قالوا".[٦١]

ولأنَّ رواية (قنص) ذات بُعد رؤيوي ممعن في التجريد؛ فقد أورد السارد على لسان الشخصيات تفسيرًا خرافيًّا للأوبئة، يرتبط بقوة الدربيل الخارقة، مما يعطي الرواية طابعًا غرائبيًا، "فالرياح بعد مجيئه، صارت تحمل الرمل والأخبار السيئة بدل المطر، فازداد مع الأيام عدد الجائعين والحزانى. أصبح منظر الدود مألوفًا مكان النباتات، وانتشرت أظلاف الحيوانات الميتة على الرمال العطشى، ثم يضفن هامسات أنَّ الموتى في الأنحاء البعيدة والقريبة زاد عددهم أيضًا. وأنَّ وقائع عديدة حدثت، ومات فيها كثير من البدو، لا يعرفن ما إذا كانت غزوات للسّلب

---

[٥٩] العلوي، مقبول، سفر برلك، ص٣٤-٣٣

[٦٠] المصدر نفسه، ص٣٥.

[٦١] العصيمي، عواض، رواية قنص)، ص٩٩.

والنهب كما جرت العادة، أم هي أوبئة فتاكة اجتاحت مناطق أولئك الموتى؟!"[٦٢]، وهذا المعتقد الذي تحمله النساء تجاه الدربيل يزيد من غرائبية الحكي وجنوحه إلى اللامعقول.

٣. الأبعاد الاجتماعية في الرِّوايتين:

- الحقل الاجتماعي التَّاريخي

تصور رواية (سفر برلك) واقع المدينة المنورة في العهد العثماني، بعد أن دخلت الإمبراطورية مرحلة المرض المعلن للتدهور، وتفشت الثورات وانعدم الأمن، وعمد العثمانيون إلى سياسة الحديد والنار من أجل القضاء على كل الحركات التحررية، وتبرز الرواية بشكلٍ ضمني هذا الواقع بشكل يُسلّط الضّوء على النّتائج والمظاهر بطريقة تخييلية، فما نقله الروائي صورة مصغرة لما كان يقع في ذلك العصر، وقد يكون المنقول أقلَّ بشاعة من الواقع الحقيقي، وتنتقد الفوضى المجتمع البائس[٦٣]، ويهيمن عليها البعد السوداوي، وترصد بشكل دقيق غياب البعد الإنساني، وشيوع الظلم والنهب والقتل بلا مبرر، وقد استلهم الروائي القصة من أحداث واقعية رُويت له، فصبّها في قالب حكائي قائم على التخييل.

وفي رواية (قنص) ينصرف الاهتمام إلى نقل تفاصيل الحياة البدوية سواء على مستوى الواقع أو مستوى البنية الذهنية، ويخلط السارد بين الواقع والتخييل، ويمعن في استثمار البُعد الخرافي في تفسير الأحداث وانتقاد البنية الذهنية، مما أعطى للرّواية بُعدًا عجائبيًّا مميزًا. وتكشف الرّواية عن طبيعة المجتمع البدوي وصراع الذّكر والأنثى، حيث تطغى الذّكورية المُتسلّطة التي تسعى إلى استعباد المرأة واعتبارها وسيلة للمتعة، ونزع السّمة الإنسانية عنها باعتبارها مخلوقًا من عقل ونفس، يمتلك القدرة في تحديد مصيره ومسيره الحياتي.

٤. رؤية العالم في الرِّوايتين:[٦٤]

تتصارع رؤى متعددة في الروايتين، تمثلها طوائف من شخصيات محملة بتصورات وأفكار ومرجعيات وقيم، تحاول فرضها أو الدفاع عنها أو حمايتها.

4/1. <u>الرُّؤية التَّراجيديَّة:</u>

لعلّ رواية (سفر برلك) خير ما يُمثل الرؤية التراجيديّة؛ فالبطل المأساوي (ذيب)، يرفض الظّلم ولا يملك سبيلًا لتغييره، ومحاولاته للتّخلص من اللصوص وقطاع الطرق تبوء بالفشل، وهو يُشبه إلى حدٍ كبير البطل المأساوي الذي لا يستطيع مواجهة موجة الشّر العاتية. ومثله (هذلا) في رواية (قنص) التي تمثل المرأة البدوية التي تعاني

---

[٦٢] السابق، ص١٠١.
[٦٣] ينظر: العلوي، مقبول، سفر برلك، ص١١١.
[٦٤] ينظر: لشهب، يونس، مفاهيم الرؤى في كتاب النص الأدبي والنقدي بين القراءة والإقراء، عالم الكتب الحديث، ط١، ص ١١٤-١١٥.

من تسلّط الرَّجل وذكوريّته، فيرغب في امتلاكها واستغلالها جنسيًّا لإشباع رغباته، وتتخذ من الهرب وسيلة للمواجهة، وهي صورة عن المجتمع الخائف الذي لا يستطيع مواجهة الظُّلم ويكتفي بذمه.

٢/٤- الرُّؤية المُتعاليَّة:

تتضح الرّؤى المتعالية في رواية (سفر برلك)، ويُمثلها (عبد الرحمن المدني)، فهو رجل فاضل يحمل قيمًا ساميةً خالصةً، وهو رجل علم ومعرفة وتقوى وإيمان، لكن مواجهته للظّلم تبقى في صورة كلمات أو عبارات احتجاجية، لا ترقى إلى مستوى المقاومة الفعلية التّطبيقية. ويُشبهه في ذلك (أبو هذلا) في رواية (قنص)، فبدلًا من مواجهة الدربيل وشرّه يختار الهروب وإخفاء ابنته في ثوب رجل، وهكذا يكون قد اختار أسهل الحلول.

٣/٤- الرُّؤية الانتهازيَّة:

يُمثل الرُّؤية الانتهازيَّة الجنود العثمانيون الذين اختاروا الوسائل الدنيئة من أجل تحقيق الغايات؛ فنهبوا المُؤن، وسرقوا ما في المنازل، وأخذوا الرَّشوة، وما يشغلهم هو المصلحة الماديَّة القائمة على استغلال الفرصة، وكأنَّهم يعوضون نقصًا يصرفونه في أشكال من الظَّلم على الضُّعفاء، ويمثل بعض الأشخاص هذه الرُّؤية وهم يظهرون في أوقات الأزمات، ويكشفون عن الشَّيطان الذي يسكنهم، ومن ذلك الرَّجل الذي يستخرج الموتى من المقبرة، ويبيع لحمهم للنَّاس من أجل الرِّبح، وذلك الذي يشتري منزلًا من ثلاثة طوابق بكيس أرز. ويمثل الدِّربيل وعصبته في رواية (قنص) الرُّؤية الانتهازيَّة القائمة على المصلحة الشَّخصية، وإن قامت على ألم الآخرين، فالدَّربيل يُمارس الظَّلم إرضاء لنفسه وغريزته، وتحقيقًا لشهوته، ويستمتع بخوفِ النَّاس وألمهم، وتحقيق رضا شبقيته.

٤/٤- الرُّؤية العدميَّة:

تتمثل الرُّؤية العدميَّة في رواية (سفر برلك) العامة المسحوقة، لا تحرّك ساكنًا تجاه الواقع، وترضى بالظُّلم والاستبداد، فبدلًا من أن تتّحد، تختار الأمر الواقع، ممّا يُسهل على من يحكم فرض سياسته. وفي رواية (قنص) يختار النَّاس الهروب من الدِّربيل بدل مقاومته، وينسجون حوله الأساطير التي تزيد من تهويل صورته واستحالة مواجهته، وأمام هذا التَّصور العامّي يزداد الدّربيل قوةً وطغيانًا.

ثانيًا: خطاب الحكاية في الروايتين:

١. بنية الزمن بين التشظّي والارتداد العكسيّ:

يُفاجئ السَّارد في رواية (سفر برلك) القارئ ببناء زمنيٍّ مُختلف، يخلخل أفق الانتظار، حيث يبدأ حكايته من وسطها، ثم يعود إلى الوراء عودة لتفسير أجزاء من الحدث، وتكمن أهمية هذا التّشظّي في أنَّه "يزود القارئ بمعلومات تفيد في معرفة الحاضر"[٦٥]؛ حتى يجد القارئ نفسه في صلب الحكاية وتصاعد الأحداث دراميًّا، ما

---

[٦٥]لشهب، يونس، مفاهيم الرؤى في كتاب النص الأدبي والنقدي بين القراءة والإقراء، ص١٣٢.

يجعله يتساءل عن البداية، وكيف آلت الأحداث إلى ما آلت إليه؟ ولا يمهله السَّارد وقتًا حتى يفاجئ بعودة تفسيريَّة تُزيل تساؤله.

يُضيء الزَّمن الاسترجاعي النَّص الروائيّ، ويُفسر أحداثه الغامضة، ويُزيل ضبابية بعضها، ويجيب تساؤلات القارئ؛ لذا جاءت تقنيته في سرد هذه الرواية موفّقة؛ فمثل هذه (التيمات) القائمة على التّشويق يكون الوصول للعقدة مثيرًا لأفق الانتظار من الوصول المألوف البطيء. وكثيرًا ما يعود بنا السَّارد في ثنايا هذا الاسترجاع إلى حاضر زمن الحكي؛ ليصف مجريات الأحداث، ثم ما يلبث أن يقتنص الفرصة ليركب مطية الزَّمن الاستباقي عن طريق الحلم أو الرُّؤى، ويفيد الرَّغبة في التَّخلص من الكابوس الجاثم على النَّفس، وهي فرصة للتَّنفيس والهروب من الواقع المظلم، واتخاذ فسحة في عالم الخيال.

وتعود قيمة الاسترجاع والاستشراف إلى دورهما الفاعل في الفهم والتَّفسير والتَّأويل، ورسم معالم أفق الانتظار بتخييبه أو تحسينه أو مفاجأته أحيانا. ويختار السَّارد في رواية (قنص) بناءً تصاعديًّا؛ إذ تسير الأحداث من الحاضر إلى المستقبل، في خط تصاعديّ متنامٍ، يقف القارئ على تطور الأحداث ونموها، وهو اختيار يواكب طبيعة بنية الحدث وتأثيره.

٢. المكان بين المرجعيّة والرمزية:

غالبًا يبدأ كُتاب الرواية الواقعية بالأماكن ذات المرجعيات الدالة، وسرعان ما يعدلون عن هذه المرجعيات؛ ليُحمّلوها رمزيات جديدة خاصة بسرد أحداث سردهم، تحمل وجهات نظرهم الخاصة. فرواية (سفر برلك) رواية مكانية، ترتبط الأمكنة بالأحداث ارتباطًا وثيقًا، وفصولها معنونة بأسماء الأمكنة؛ ولأنّ الرّواية سفر مأساوي في مواجهة المجهول، فقد توزّعتِ الأحداث والشَّخصيات بين الأمكنة المفتوحة والأمكنة المغلقة، ولكل مكان رمزيته التي يكتسبها من سير الأحدث وتطورها.

وتكمن أهمية المكان في أنَّه يقدم لنا مجموعةً من الدلالات والإيحاءات، ويُطلعنا على الشَّخصيات، ويزوّدنا بمعلومات تفسّر الأحداث، ويمكن الوقوف على مجموعة من الدّلالات الخفيّة التي تُستفاد من سياق الأحداث وتطورها، فالطّريقُ إلى المدينة ودمشق . مثلًا . ترتبط دلالته بالمجهول، وانعدام الأمل، والخوف، وضبابيّة الغد، ويحمل بُعدًا مأساويًا.

وأما المدينة المنورة، ففي البداية كانت ترمز إلى الحياة وعودة الأمل، والتخلص من المعاناة، وانزياح الكابوس، ففيها ارتاح البطل من تعب الرحلة التي جعلته عبدًا وخادمًا في الجزء الأول من أحداثه وصراعاته، وفي الجزء الثاني تحوَّل إلى فضاء دال على الخراب والموت والدمار والفوضى وانعدام الحياة بعد أن هُجّر أهلُها ومات أغلبهم بالجوع. ويرتبط (بيت عبد الرحمن المدني) بالعلم، وبالرخاء وبالعروبة، وبالقيم الأخلاقية السامية؛ كمعاملة الخادم

بإنسانية، وخدمة العم، والعطف على المساكين. ويرمز (منزل الباشا) إلى السلطة الغاشمة والظلم، تحاك فيه المؤامرة على المدينة وأهلها. وأما البادية والصحراء في رواية (قنص) فتنفتح على دلالات المجهول والخوف، وتتماشى هذه الدلالات مع طبيعة الأحداث وسيرورتها.

٣. اللغة السّرديّة: معجمها ودلالاتها:

يُلحظ في النسيج اللغوي للغة السرد في الروايتين تداخل مجموعة من الحقول المعجمية في تكوين النَّسيج اللغوي للنَّص، وتُسهِم إلى حدٍّ كبيرٍ في الكشفِ عن طبيعةِ الظَّواهر المتفشية ونقدِها، من خلالِ تفصيلِها وشرحِها وإضاءتها، فالتَّنويع في العبارات والألفاظ المنتمية إلى الحقل الواحد يسهم في كشف أبعاد الظواهر المدروسة، وقد أتاح تتبع معجم الروايتين الوقوف على الحقول التالية التي تتفاوت في درجة انتشارها.

٣/١- حقل الحرب والفوضى: هو الحقلُ الأبرز الذي تتفرَّع عنه سائر الحقول، ومن مكوناته: (نهبها من الجنود الغاصبين، هجم على الحوانيت، استولى على أكياس الحنطة، التهجير، إجلاء سكان المدينة، العصيان، سلاح وديناميت، الانفصال والاستقلال والتحرر، إيداعه السِّجن الملحق بالقشلة.. يستخرج جثة الميت فيقطعها ويبيعها للناس).

٣/٢-حقل الجوع: يمثل الحقل الأكثر انتشارًا وارتباطًا سببيًّا بحقل الحرب، ويُسهم في إبراز صورة الواقع التَّاريخي لحقبة مُظلمة من تاريخ حكم العثمانيين، ويندرج تحته: (الوحوش الجائعة، الجياع والفقراء، توزيع الصدقات، ندرة الطعام، نقص الغذاء والدواء، هزيلو الأجساد، تلاشي مخزون القمح، شح التموين.. باع بيته مقابل كيس من أرز).

٣/٣- حقل الوباء: يرد مكمَّلًا للحقلين السَّابقين، ولا يستقل بنفسه، ويُسهم في الإشارة إلى جانب آخر ممَّا كان سائدًا في تلك الحقبة، ومن العبارات والألفاظ الدَّالة عليه: (المحل والأوبئة، شراهة الوباء، الذَّهاب للمحجر الصِّحي، فتك به المرض، مات بالجدري، الملاريا، ...).

وترتبط الحقول فيما بينها ارتباطًا سببيًّا؛ فالحربُ والفوضى في رواية (سفر برلك) أسهما معًا في شيوع السَّرقة والنَّهب وقلَّة الموارد، ممَّا أدَّى إلى تفشِّي المجاعة التي أفضت إلى مظاهر مروعة، وهذا التَّرابط العضوي الذي خلقه السَّارد بين الحقول جعلها تتضافر في تصوير الواقع بطريقةٍ دقيقةٍ، كما أنّ هذه الحقول تخرج من حقل المفهوم البيولوجي، ومنها: (الجوع) إلى كونه معبّرًا في الرواية عن الجانب الأيديولوجي، وما يتمخض عنه من مواقف حياتيّه مختلفة، ترمي بظلالها على الإنسان، حاصدةً الأرواح، ومفسدةً وموجّهةً العلاقات...!.

الخاتمة

يمتلك السرد الروائي من خلال خصائصه وتقنياته مساحات شاسعة، لها القدرة على التعبير عن الظواهر المختلفة التي تتغلغل في نسيج المجتمع، فتنقله إلى عالم سردي لغوي يعضده التخييل، فيغدو قادرًا على معالجة القضايا وتصوير الظواهر؛ للكشف عنها، ونقدها، ولفت الانتباه إليها لتغييرها أو تجاوزها، وهذا ما نُصادفه بشكلٍ بارز في رواية (سفر برلك) ورواية (قنص) بدرجة أقل.

رسم الروائي في رواية (سفر برلك) عالما سوداويًّا للحقبة التاريخية التي اختارها منطلقًا سرديًا؛ فصوّر مأساة الناس في المدينة المنورة واضطرارهم إلى أكل القطط والكلاب، وبيّنَ كيف سادت في أزقة المدينة أشباح وهياكل عظمية ما يؤذن بنهاية مأساوية؛ فصار الناس يتقاتلون على كسرة خبز أو تمرة ملقاة في الشارع، ومن ناحية أخرى كثر قطاع الطرق ولم تعد الطرق آمنة، وأصبح الجنود يهجمون على المنازل لسرقة ما فيها من مؤن، وهكذا انتشرت الفوضى. وفي المقابل كانت البِنية الشكلية للرواية دالة على الأحداث معبرة عن الواقع، فالزمن والمكان واللغة يعبرون عن البعد الاجتماعي والتاريخي، ورؤية العالم، فاتَّحد الشكل والمضمون في نقل الواقع وتصويره.

والأمر نفسه، وإن كان بدرجة أقل –كما أسلفنا–، في رواية (قنص)، فقد أشار الرّوائيّ إلى بعض الأوضاع الاجتماعية التي سادت البوادي والصحراء؛ كالجوع والأوبئة، كما قارب البنية الذهنية للمجتمع البدوي الذي هيمنت عليه بعض القيم السّلبية؛ كالذكوريّة والإيمان بالخرافة، وسلك طرائق مختلفة في سرده وبنائه الدراميّ.

شكّلت الرّوايتان عينة صالحة لدراسة تيمات الحرب والمجاعة والأوبئة، حاولت الدراسة الجدة ما استطاعت من خلال طرحها التنويريّ المختلف؛ للوقوف أمام آفات الظّلم والجهل وعصور مركزيّة السّلطة، وهذا ما تسعى إليه الرّواية الحديثة، من خلال تقنياتها الحديثة؛ كالارتداد التاريخيّ لأزمنة الظلم والإجحاف وإهدار حقوق الإنسان وأرضه وممتلكاته.. ومن هنا يُشير النّص الرّوائي إلى –الضّد– المدنية الحديثة، وما صنعته في حرّيّة الإنسان من معمارٍ بنائي وفكري وعلمي، قاد الإنسان إلى البحث عن مصادر البقاء، والرّفاهيّة، وتسخير العلوم بوعي الإنسان وقبوله التّغيّير والتعايش مع الآخر، والتّعدديّة، إلى اندثار أزمنة سلبت الوجود الإنساني وأحالته إلى مجتمع حيواني بهيمي، خالٍ من مفاهيم الذّوق والإنسانيّة.

مزجت الروايتان بين التاريخ والفن، واستطاعتا أنْ تُعبرا عن الواقع بشكل فني، بعيدًا عن التسجيل الحرفي، واستغل الروائيان قدرتهما على صهر الأحداث وفق رؤيتهما الإبداعية؛ ليخرجا بعملٍ فني يقارب ظاهرة الوباء والجوع بطريقة ممعنة في الدرامية. اتسمت رواية (سفر برلك) بتسلسل الأحداث وفق تنامٍ تصاعدي، أضفى عليها بُعدًا دراميًا مأساويًا، فيما أمعنت رواية (قنص) في البُعد الذهني الذي جعل الربط بين الأحداث يشكل تحديًا قرائيًا.

المصادر والمراجع

أولًا: المصادر:

العصيمي، عواض (٢٠٠٥م). قنص. ط١. بيروت: دار الجديد.

العلوي، مقبول (٢٠١٩م). سفر برلك. ط١. بيروت: دار الساقي.

ثانيًا: المراجع:

الديوب، سمر (٢٠٠٩م). الثنائيات الضدية (دراسات في الشعر العربي القديم). د. ط. دمشق: منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب.

علي، مناف بسام (٢٠١٦م). الجوع في الأدب العربي الحديث: دراسة في الأطر الإنسانية والفنية، (رسالة دكتوراه)، جامعة العلوم الإسلامية العالمية.

غلاب، عبد الكريم (١٩٩٨م). أزمة المفاهيم وانحراف التفكير، سلسلة الثقافة القومية ٣٣. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

لشهب، يونس (٢٠١٢م). النص الأدبي والنقدي بين القراءة والإقراء. ط١. عالم الكتب الحديث.

محفوظ، نجيب (١٩٧٧م)، ملحمة الحرافيش. (د.ط). مصر: مكتبة مصر للطباعة.

هاشم، د. صلاح (٢٠١٧م). ثورات الجياع. ط١. الجيزة: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي.

يونس، محمد عبد الرحمن (١٩٨٦م). قراءة في رواية الوباء، الموقف الأدبي، اتحاد كتاب العرب، مج ١٦، ع ١٨٤.

ثالثًا: المواقع الالكترونية:

إلياس خوري. الوباء والأدب العربي الحديث: لماذا لم تلتفت الرواية العربية إلى الأوبئة، موقع قنطرة: https://ar.qantara

الساعد، محمد. سفر برلك قرن على الجريمة العثمانية في المدينة المنورة، www.alarabiya.net

شحود، علا. (٢٠٢٠). بين الحقيقة والرمز كيف يحضر الوباء في الأدب؟ استرجع من موقع الميادين: https://www.almayadeen

معجم المعاني استرجع من موقع : https://www.almaany.com

وقع أراجيك. ما هو السفر برلك نفير عام (١٩١٤)، https://www.arageek

Structuralism Aspects of War, Famine and Epidemic: Investigation for (Safar Barlik) and (Quans) Novels

لايوجد ترجمة للاسم والوظيفة والعنوان

***Abstract*.** this research aims to investigate the social and historical dimensions in two indicative models of the Saudi novel, by focusing on the structures of war, famine, and epidemic. These two novels are (Safar Barlik) for Maqbool Al-Alawi, and (Quans) for Awad Al-Usaimi, as well as observing the phenomena, moving away from direct comparison, with an attempt to link the content to the form by studying the discourse of story, vision, social dimension and the productive contexts of the discourse through employing the related principles of the Genetic Structuralism Approach

The research addresses the relationship of literature to life, and existence of epidemic and famine in Arabic literature, then tracing the narrative text of the two novels and monitoring those manifestations and their role in the development of events, to conclude with monitoring the social dimension and determining the world view learned from the two novels, without neglecting the discussion of the narrative discourse through time, place and narrative language, so as the research can combine studying the genetic structuralism and link it to the content dimension.

The research concluded that the narrative discourse possesses, through its structural characteristics, a special ability to express the various phenomena which appear to society, transferring it to a narrative world combines the language of expressed reality and the language of imagination as a creative work capable of addressing the issues of its reality and portraying its phenomena, as well as monitoring and revealing their causes, to be criticized through the point of view, in an attempt to change or transcend them. All this has been revealed by the Genetic Structuralism investigation more clearly in (Safar Barlik) and less clearly in (Qunas) novels.

Key words: Structures - War - Epidemic - Famine - Hunger.